هيهات الجنوب

الإهداء

إلى درة لبنان ولسانها البليغ، إلى سيد المقاومة وشهيدها الأقدس السيد حسن نصر الله، أقدم مداد قلمي المتواضع، الذي خط هذه القصة، ليخاطب الجيل الجديد، الذي سيحمل الراية، ويحقق ما كان يسعى له الشهداء.

كذلك أقدم الشكر والتقدير لكل من شجعني وساعدني في إكمال هذه القصة، واخص بالذكر:

الست إيمان عبد الرحمن الدشتي

الدكتور إبراهيم جبار زاهي

الأستاذ علي فاضل عبد الرضا

الصديق العزيز الحاج كاظم محمد جواد

الصديق عبد الرضا عقيل مهلهل

هيهات الجنوب

عيوني الفتية، التي تسعى لمعرفة العالم، وتسأل عن كل شيء، عن الأشجار والحيوانات والآلات والشوارع والأشخاص، هي لطفل يريد أن يدرك العالم، فكانت تسعى لاستكشاف كل ما حولها، وكل رحلاتي الاستكشافية كانت مع أبي العزيز، أسئلتي دائماً ما كانت مترادفة، بينما كانت إجابات أبي متأنية، ويستطرد في الإجابة حتى يحيط بكل زوايا السؤال.

ذهبت ذات يوم مع أبي الغالي، الذي يمسك بيدي بقوة، ليمدني بحنانه، ولتتناسق خطواتنا معاً إلى السوق الكبير، الذي كان كبيراً عليَّ أن اكتشفه! إذ يبُاع فيه كلُّ شيء، به تختلط الأصوات والألوان والروائح وحتى النوايا، فكل خطوة في السوق تحمل رائحة خاصة، وأكثر ما يلفت انتباهي هو المحلات الصغيرة، التي تكفي لشخص واحد فقط، تبُاع فيها أشياء جميلة عطور وساعات وورد وصور، وأثناء مرورنا بالسوق كان هناك محل صغير يعرض صوراً

لشخصيات، ولوحات فنية، من بين كل هذا، كانت صورة متوسطة الحجم، في أعلى الرف، فيها سيد أربعيني ذو عمامة سوداء، وعباءة بُنية، يلبس نظارات ذات إطار أسود، وله لحية جميلة، وجبين ناصع البياض، له هيبة وسحر يؤسر القلب، فقلت لأبي من هذا ؟ فقال هذا السيد حسن نصر الله (حرسه الله تعالى) وأخذ أبي يتكلم عن سيد حسن، فقال إنه قائد حزب الله الذي يقاتل الصهاينة، برجاله الأبطال الذين يحامون عن المسلمين ويحفظون أراضيهم من الإحتلال.

عبرنا الشارع المزدحم بالسيارات، عائدين إلى البيت، فأعدت السؤال على أبي عن سيد حسن، فقال: هذا ابن الزهراء هذا شخص كبير جداً، وظلت كلمات أبي تثير الاستفهام أكثر من أن توضح لي من هو سيد حسن، كثير من القنوات الفضائية تظهره في نشراتها الإخبارية، كشخصية رئيسية، فهو يصنع الاحداث، وتعرض بعض خطاباته، التي كانت من عالم آخر، فصوته مملوء بالثقة، وحركاته تشد المقابل وتزرع فيه الحماس.

بدأت اتتبع هذا السيد، واغتنم كل استراحات أبي، لأسأله عن سيد حسن. أخذ أبي يقص عليَّ الصراع الإسلامي الإسرائيلي، وعن معاناة الشعبين الفلسطيني واللبناني، جراء الإحتلال الإسرائيلي، بكلمات بسيطة وأسلوب رائع يليق بي كطفل.

شخصية السيد كانت أحجية كبيرة، بتعدد زوايا حياته، كأنه كتب له من جميع الفضائل نصيب، أو إنه سعى ليطأ بقدمه كل ساحات المجد، لقد أخذني حب السيد لأجل أن أسعى في فك بعض تفاصيل هذه الأحجية.

خطوات لفك الأحجية

البحث في حياة السيد حسن فتح لي باباً لعالم ثانٍ، يحتاج الكثير من الأسئلة، أصبحت اتتبع خطاباته التي تُعدّ معلقات، بداياتها يشكر فيها من ضحوا ومن ساندوا وصمدوا، ثم يشرح الأحداث بأسلوبه الذي يتذوق الجميع حلاوة طعم القائد الذي يهتم بقاعدته الجماهيرية ويحترمها، ويبين الحقيقة ويجيب عن الاستفهامات، وبعدها يهدد ويتوعد العدو بالرد والصمود والمواجهة! لقد كان صادقاً بكل معاني الصدق مع جمهوره، يعلمهم أين هم! وأين يتجهون! في بحر العالم الهائج، وبين كل هذا كان يمرر الطرفة بعض الأحيان، لقد ملأ عينيَّ الصغيرتين ففاض منهما كبرياء وكرامة وجمالا.

أصبح حبي للسيد حسن لا يخفى على أحد، فعندما نجحت من الابتدائية، كانت هدية أبي لي صورة كبيرةً نسبياً، ذات إطار ذهبي، لسيد حسن وهو مبتسم، التي فرحت بها كثيراً، كانت تروي ظمأ روحي العطشى بحب السيد، حتى وضعتها في أعلى رف من مكتبة أبي، التي أصبحت لي فيها حيز لبعض كتبي، أكحل بها عيني كل يوم. مع تقدمي في العمر أصبحت أكثر استكشافاً لحياة سيد حسن، فكل سؤال أطرحه عن سيد حسن يجبرني على سؤال آخر، حتى تشرب حب وعشق سيد حسن نصر الله في روحي.

لم افوت لقاء ولا خطاباً له إلا وسمعته، إنه لا يشبه أحد، لقد كان استثنائياً بكل ما تعني الكلمة من معنى، لقد بُعث سفيراً للتوكل والإيمان والثبات والكرامة والشموخ والعزة، والصبر والتضحية.

صوت يقول في داخلي "إذا كان سيد حسن نصر الله بهذه الفصاحة والقوة؛ فكيف كانت خطب أمير المؤمنين عليه السلام؟" لقد أصبح سيد حسن قدوتي ومثلي الأعلى، بتعدد أدوار شخصيته فهو رجل دين، وسياسي وعسكري، أين ما اتجه أجده في القمة، بل أشرف من وصل إلى القمة.

لكن اسئلتي عن السيد لم تنته، فهي تفتح لي أبواباً كثيرة، إذ سألت الشيخ عبد الله الذي يؤم المصلين في مسجد الحي، الشيخ عبد الله رجل فارع الطول، وذو لحية جميلة، في يده ساعة دائماً ما يرمقها لمعرفة الوقت، فهو شديد المحافظة على الوقت، ووجهه بشوش، إنه تقي وذو اطلاع واسع، يلقي محاضرات وندوات ثقافية بشكل مستمر، وكان تركيزه على الشباب، لأنه يؤمن بأنهم الوقود الذي يحرك عجلة المجتمع، فقصدته مستفهماً لماذا السيد حسن يعمل في السياسة؟

فقال الشيخ: سؤالك هذا يحتاج إلى جلسة وليس إلى جواب عابر، ثم قال: تعال قبل صلاة المغرب كي أُجيبك على هذا السؤال.

كنت متحمساً لفك جزء من هذه الأحجية، ومعرفة هذا الإشكال ، الذي لا اعرف تفسيره عن سيد حسن، ذهبت بالموعد إلى الشيخ عبد الله، فاستقبلني بابتسامته الجميلة ورحب بي، ثم جلسنا بجانب المنبر الذي يشرف على التاريخ والمستقبل والمسجد.

طلب أن اتفضل بسؤالي، فقلت: لماذا السيد حسن نصر الله يعمل في السياسة؟ وهو ذلك الرجل الصالح!

فقال: إن مذهب الإمامية هو مذهب ديني سياسي، فلا الدين ينفصل عن السياسة ولا العكس، فالرسول الأعظم كان قائد دولة، غيّر ثقافة المجتمع الجاهلي إلى ثقافة إسلامية، وبنى تحالفات وقاد حروباً ووقع على صلح، من يعمل هذا أليس بسياسي؟

أومأت براسي بالإيجاب، ثم أكمل قائلا: ما فائدة تعاليم الدين إذا لم يوجد من يحولها من نصوص على الورق إلى أفعال تحرك المجتمع، فالدين هو الذي يقود الحياة، وأي مذهب لا ينتج سياسياً يصبح مجرد طقوس، معزول بين جدران المساجد.

إن طريقه حديث الشيخ عبد الله شدتني جداً إلى متابعة الاصغاء إليه، فهو يرفع ويخفض صوته حسب أهمية العبارات، فبعض الكلمات ينطقها بصوت مرتفع مع تواصل نظراتي إليه، فلم اتوقع أن سؤالي كان بهذه الأهمية.

وجه الشيخ عبد الله سؤالاً لي: هل قرات دعاء الافتتاح؟ فأجبت بأني سمعته!

قال في هذا الدعاء (اللهم إنا نرغب إليك في دولة كريمة تعز بها الإسلام وأهله...)

هل مجرد التمني يكفي؟ فأجبته بكلا.

قال: إذاً نحتاج إلى جهود في كل مجالات الحياة لصنع هذه الدولة، ومن أهم الأسس لهذه الدولة هي خوض العمل السياسي وفق القواعد الإسلامية التي ترعى حقوق الناس، ثم قال: هل الأفضل نحن من ندير حياتنا أم نسمح للآخرين من أن يديروها؟ فقلت: بكل تأكيد نحن أفضل من ندير حياتنا.

فقال الشيخ عبد الله: نحن أصحاب مشروع متكامل، وكل ما نقوم به ناقص إذا لم ندخل في السياسة، فما النتيجة من كل سعينا الديني إذا لم يكلل بقيادة الأمة، وفرض حاكمية الله في الأرض، وإن كانت بشكل نسبي قبل الظهور المبارك.

حقيقةً دُهشت لأهمية الدور السياسي، وخرجت عدة علامات استفهام تدور في رأسي .

سلم عدد من الشبان على الشيخ، ثم أخذ المؤذن يفتح أجهزة الصوت، حيث بدأ بقراءة آيات قرآنية مباركة، ملأت المسجد بركاتها وغمرت المدينة كلها.

وقبل أن ننهي الجلسة أهداني الشيخ خاتماً من الفضة ذي فص فيروزي، فشكرته على هديته التي سُعدت بها كثيراً.

أذن الأذان وقمنا للصلاة، وكل صلاة خلف الشيخ عبد الله كانت بقنوت "اللهم انصر الإسلام والمسلمين، واخذل الكفر والكافرين، بحق محمد وآله الطيبين الطاهرين" دعاء يحمل روح المواجهة، ويرسم خطاً طويلاً من الصراع بين الخير والشر.

وفي طريق العودة إلى المنزل؛ بدأت أنظر بتأمل إلى صور الشهداء المشرفة لأعمدة التيار الكهربائي، فكل شهيد أقف أمام صورته مستذكراً تضحياته هو وعائلته، هذا الشهيد لم يتزوج، وهذا ترك زوجته وأطفاله، وهذا لم يكمل دراسته، فكلهم أبناء منطقتي، هل كل هذه التضحيات وهذه الأثمان تذهب سدى؟

هل قدرنا أن نصنع نصراً ثم نسلمه للجبناء؟

هل نكرر إخفاقات الماضي؟

عندها صدح صوت من أعماق قلبي: لا لن تذهب سدى، ولن يحصد أحداً ما زرعناه.

كان جواب الشيخ جداً مهماً بالنسبة لي، فهو يضع الأهداف التي لم أتوقع أننا يمكن أن نصل إليها وأن نبني دولة، حتى أن نظرتي لعالم السياسة قد اختلفت كثيراً، فهو عالم مهم علينا أن نخوض غماره ونحصل على حقوقنا.

إن التفكير في أهمية ممارسة العمل السياسي، توضح حقيقة ما يعمل الإعلام المُغرض على نشرها حتى يسود ويشيطن العمل السياسي في أعيننا، ليبعدنا عن حقنا في ممارسة العمل السياسي، لينفرد به أرباب الإعلام الأصفر، فبشكل منطقي إما أننا نحن المؤمنين من نشغل الساحة السياسية أو يشغلها المحتل وغير المتدينين، وبالتالي يفتحون علينا مشاريعاً ثقافية تنهي كل قيمنا وثقافتنا الإسلامية، ويهددون بهدم الأسرة ويجعلون المجتمع غارقاً في الانحلال الأخلاقي.

حينما يطل السيد حسن علينا بخطاب أو لقاء، أحسب كلامه موجه لي بالدرجة الأساس، أبتسم مع ابتسامته، وأنفعل مع انفعاله، فهو يضع كل شيء في موضعه، ويمنح كل شيء حقه، كنت اسمع الخطابات وأنا واقف، كيف أجلس وسيدي يتكلم؟

يتكلم عن وجوب إزالة إسرائيل، وقلع شجرتها الخبيثة من أرضنا المباركة، ووجوب المواجهة والاستعداد لإعادة حق المظلومين من الشعب الفلسطيني، وتمزيق كل المؤامرات التي تحاك ضد بلداننا الإسلامية.

سألت الشيخ عبد الله مرة أخرى، والذي يشجعني على السؤال في كل مرة، ابتسامته الجميلة التي ترحب بي من بعيد.

قلت للشيخ عبد الله: ما أفضل طريقة نقطع بها الطريق على العدو من أن يصل إلى بلدنا؟ فقال الشيخ: هو أن نكون في أعلى الهرم السياسي، ليكون المقود بأيدينا، كي لا نسمح للمنظمات المدنية والنسوية بالعمل في بلدنا، فكل منظمة تدعمها دولة لأجل زراعة شيء ما، لتحصده في وقته المناسب.

قلت للشيخ: سياسيونا الآن بيدهم البلد.

تأوه الشيخ ثم قال: لدينا سياسيون مؤمنون ولكن قلة قليلة، أما الأكثرية ففقط بالاسم مسلمون، فهم يلبون كل طلبات العدو، وربما يقدمون خدمات قبل أن يطلبها العدو أصلاً، على حساب دينهم وحقوق شعبهم المظلوم.

قلت: وما الحل؟

فقال الشيخ: الحل هو إنتاج سياسيين مؤمنين عقائديين يحملون هم الأمة، ويسعون إلى خدمتها لا التآمر عليها وبيعها بثمن بخس، وأشار إلي بقلمه هذا دوركم أن تتحملوا المسؤولية، وتؤدوا الدور بأفضل أداء، عليكم أن تحولوا المسؤول من متسلط على الناس إلى خادم وحامٍ للناس، "انتم الجيل الجديد أنتم الشباب والشابات أنتم ستحملون الراية ستكملون طريق وتحقيق الأهداف والآمال وأحلام الشهداء" أليس هكذا يقول سيد حسن؟ مع ابتسامة هادئة من الشيخ.

ثم أكمل: بالسياسة ممكن أن تحصل على ما لا تحصله بالقوة العسكرية والاقتصادية، فالسيد حسن يمارس أشرف دور وأعظم واجب، وهو العمل السياسي لخدمة الأمة الإسلامية، والوقوف أمام الاستكبار العالمي الذي يسحق كل الضعفاء في العالم.

تشكرت كثيراً من الشيخ عبد الله على سعة صدره، وتواضعه، فلم يُجب إلا: بالعفو هذا واجبي شكراً لك، فأنت المتفضل بالسؤال.

السيد حسن بأي عالم قد أدخلني! لقد شاهدت حقيقة ما يحصل، لكن الحقيقة مغيبة عن الكثيرين وبالأخص فئة الشباب، إن الدين قد شغل كل مجالات الحياة، ونحن نتحرك باتجاه بناء دولة العدل الإلهية، فالإمام المهدي (عجل الله فرجه الشريف) إمامنا ويجب ألا نقصر معه وألا نُستبدل بآخرين لإتمام المهمة.

ينتابني شعور بأن السيد محيط مترامي الأطراف، وانا ما زلت لم اتخطَّ ساحله بعد، أشعر بالحظوة أنني أدركت هكذا رجل عظيم، وحبي كبير لهذا السيد، ورغم البعد المكاني بيننا، فأنا في العراق وهو في لبنان، إلا أنني أشعر وكأني بجنبه، وعليَّ أن أؤدي حق هذا الحب بالإتباع والاقتداء.

نصيب الأولياء

في عطلة نهاية الأسبوع، التي تعد فسحة لكسر الروتين الأسبوعي، وتفتح لي المجال لممارسة هواياتي، فقد كنت اخصص الليل الذي يغطينا بجلبابه الأسود، والذي تزينه النجوم المتناثرة، فتثير التأمل في الفضاء الفسيح، وتشعرك بالوحدة في هذه المجرات المهجورة، لسماع محاضرات السيد عبد الجبار العوادي التي تدور حول التوحيد، فالسيد عبد الجبار العوادي بوجهه المشرق بالإيمان ولحيته البيضاء، كأنه يعصر ثمار تجاربه في هذه المحاضرات، كلماته تنتقل إلى القلب بشكل مباشر، وتعكس النوايا الصادقة لهذا السيد الجليل.

التوحيد ومعرفة الله سبحانه، وجعل كل الحركات والسكنات قربةً إلى الله تعالى، فلا تغلبك أي رغبة ولا أي مؤثر سواء كان منصباً أو مالاً أو خوفاً أو طمعاً، فكلها تندحر أمام الخوف من الله والسعي لنيل رضاه جل جلاله، إن هذه مرتبة الأولياء ونصيبهم من فيض الله تعالى عليهم، الذين خصهم الله سبحانه بتوحيده.

عندي أثير سؤال من يحمل على كتفه إشارة الموحد، في وسط هذا الابتعاد عن الله تعالى، تبين أن نفس السؤال قد أثير في المحاضرة أيضاً، وإذا بالسيد عبد الجبار العوادي يضرب بالسيد حسن نصر الله والشيخ عيسى قاسم مثالاً للموحد في وقتنا الحاضر، كم كبير وعظيم أنت يا سيدي يا حسن نصر الله، لقد نظرتُ إلى السماء وإذا بكوكب لامع يثقب ظلام الليل بضيائه، فقلت إن سيدي الحبيب الآن يضيء لأهل السماء مثل هذا الكوكب بل أكبر من هذا حتماً، سيدي موحد، وهو لا يخاف أبداً إلا من الله الواحد القهار، وهذه الصفة لا تخفى على أحد، فبخطاباته يصدح صوته الشجاع قائلاً عن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) "إني والله، لو لقيتهم فرداً وهم ملء الأرض ما باليت ولا استوحشت" وعندما وُضع الإمام الحسين (عليه السلام) بين خيارين قال "ألا إن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة وهيهات منا الذلة" فهو قول وفعل لن يعبأ بهم وبجمعهم حقاً، لأنه مع الله القوي العظيم.

إن هذه المحاضرة كأنها قد ختمت على صدري حب السيد، الذي اتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى، كما قال الشيخ مصباح اليزدي رضوان الله تعالى عليه.

ركيزة الانتصار

كلما ازدادت خطواتي في الحياة، أصبحت أكثر حباً للسيد حسن، لقد صار بطل حياتي بامتياز، كان مرافقي في مرحلة الطفولة والمراهقة والشباب، وبطلي الذي اتغنى به، لكن هناك نقاط غامضة عندي، لا أعرفها عن السيد حسن نصر الله وعن حزبه الظافر، ورؤية الأمس ليست كرؤية اليوم، فهناك سؤال يدور في داخلي ابحث له عن إجابة بين خطابات السيد والمحاضرات والتحليلات، سؤالي هو كيف يصمد حزب الله أمام كل الضغط العالمي عليه؟ كيف تصمد بيئة المقاومة أمام الحرب الناعمة التي تهدف إلى تفتيت قيمه وافكاره؟

ما حصلته من بحثي الشخصي إجابات مبعثرة، لا ترتقي إلى مستوى السؤال .

جمعني في أحد ليالي الجُمَع لقاء مع الدكتور سالم فهو يجمع بين الدراسة الأكاديمية والحوزوية، يلبس البدلة الرسمية من دون رباط، متوسط القامة، لحيته يغلب عليها البياض، في يده ساعة ذهبية كثير النظر إليها، كثير الملاطفة، مما يكسر كل الحواجز بينه وبين المقابل ،فتحسبه صديقاً قديماً لا تتقيد معه، ولا أظن أن هناك أفضل من هذه الفرصة، فسارعته بالسؤال عن سر صمود حزب الله بأفراده وبيئته أمام الضغط العالمي، فكيف لحزب أن يصمد أمام دول الاستكبار؟

طلب الدكتور سالم الهدوء من الجميع، وقال للحاضرين هذا سؤال مهم، وطلب مني أن أعيد السؤال حتى يسمعه الجميع.

قلت ما هو سر مقاومة وثبات حزب الله رغم كل المشاكل التي واجهها؟ ويخرج منتصراً منها رغم إمكانياته التي مهما كبرت تبقى إمكانيات حزب.

قال الدكتور سالم: نقطة الانتصار عند حزب الله هي عقيدتهم القوية وإيمانهم الثابت بحقهم، في الدفاع عن أرضهم وأنفسهم علاوة على ذلك نصرة المظلومين أين ما كانوا، فعلى هذه النقطة ترتكز كل النقاط الباقية، مستوى العقيدة ليس فقط عند أفراد الحزب، وإنما يشمل كل عوائلهم والبيئة التي تحتضنهم، هذا نتيجة عمل ثقافي يستهدف الجميع أطفالاً وشباباً وشيوخاً والزوجات والأمهات والأخوات، فحينما يكون المجتمع مؤمن سوف ينتج أبطالاً لهم همم إن أرادوا إن يزيلوا الجبال الرواسي لأزالوها، فهكذا مجتمع لا ينهزم، ولا يُخذلُ أبطاله.

أنا والحاضرون نصغي للدكتور سالم ومنشدين إليه، فهو يتكلم بحماس، ويوزع نظراته على الحاضرين، ويكثر من قول واضح؟ فنجيب بواضح.

اكمل الدكتور سالم حديثه: إن الجميع ينظرون إلى القائد، كيف يكون يكونون، بالإخلاص والتفاني والصبر، حينما يشاهدون سيد حسن يقدم ابنه هادي شهيداً، فهم سيكونون داعمين ومشجعين لأبنائهم للمشاركة في الجهاد.

وقع بين يدي مقطع فيديو للسيد حسن يتكلم عن السر في انتصار حرب تموز ٢٠٠٦، كأنه المفتاح الذي يحل طلسم الانتصار.

كان جواب السيد حسن مختصراً ومدهشاً مع ابتسامة هادئة، السر هو الارتباط بالسيد الولي السيد علي الخامنئي (دام ظله) فكل أوامره تنفذ بشكل مسلَّم، أي أنه ولي أمر المسلمين.

لقد أزيل من أمام عيني الستار سبب قوة وانتصار الحزب ، وعن أهم الركائز الأساسية لقوة الإنسان، ألا وهي العقيدة.

الشخص البسيط يتحول إلى إكسير من القوة، حينما يكون عقائدياً، فلن تنثني إرادته أمام كل المشاكل والمصائب، فهو منتصر بكل الأحوال في قانون الله سبحانه وتعالى، وكما قال السيد حسن نصر الله: حينما ننتصر ننتصر وحينما نُستشهد ننتصر.

بوصلة الحب

إن تعلقي بالسيد الحبيب، قد أضحى لي بوصلة تحدد الوجهة الصحيحة، وبهذا فتح لي باب الحب والبغض، باباً واسعاً يقسم العالم إلى قسمين، فالقلب هنا هو الأرض التي يزرع فيها الحب، حب الحق وأهله، وحب الجمال والأفعال الجميلة، حب الخير وصانعه، فلا بد أن يزرع في القلب الحب، وأيضاً لا بد من زراعة البغض للباطل ومعتنقيه ومرتكبيه، في القلب، فالقلب هو ساحة الصراع التي لا بد أن ينتصر الحق فيها، وألا يبقى فيه موطئ قدم للباطل ،هذا الموضوع جداً مهم، فمن يدخل في القلب سيحرك العقل بالنهاية.

بقيت أفكر في الموضوع أكثر من شهر، حتى استقر رأيي أن أقصد الشيخ عبد الله مستوضحاً عن الحب والبغض، وما أن أقبلتُ عليه حتى بانت لي ابتسامته الساحرة، التي تعد بطاقة طمأنينة لطول الجلسة.

سلمت عليه وسألته عن صحته وأوضاعه، فرد السلام ورحب بي كثيراً، وحمد الله تعالى على نعمة الصحة.

قلت له: شيخنا العزيز هل تسمح لي بسؤال؟

قال: ما شاء الله السؤال مفتاح المعرفة، ما سؤالك؟ قلت: ما هو معيار الحب والبغض؟

قال: طبعاً المعيار هو الله سبحانه وتعالى ونبيه وآله صلوات الله عليه وعليهم أجمعين.

نحبهم ونحب من يحبهم ونحب منهجهم ونسلك طريقهم، وكذلك نبغض أعداءهم ونهجهم وكل ما يتعلق بهم.

إنه قانون التولي والتبري، فسلمٌ لمن سالم (محمداً وآل محمد) وحربٌ لمن حاربهم.

هذا ما رسمته زيارة عاشوراء لنا، التي تمثل دستوراً للحب والبغض.

زيارة عاشوراء التي لا بد أن تترجم كأفعال في الحياة، فلا يمكن أن نقف مع شخص أو حزب أو فكر ينصب البغض والعداء لفكر أهل البيت أو لبعض شيعتهم.

قال لي الشيخ عبد الله: هل تحب السيد حسن نصر الله؟

قلت له: نعم بكل تأكيد، بل أذوب به عشقاً.

تبسم الشيخ وقال لي: هل يمكن أن ينجمع في قلبك حبه وحب أعدائه؟ قلت: كلا؛ لا يمكن، يصبح تناقضاً، والنقيضان لا يجتمعان.

قال الشيخ: الآن وصلت إلى المطلوب، هذا ما أردت أن اوصلك إليه.

ختم الشيخ كلامه بابتسامة وقال: هل لديك سؤال أخر؟

قلت: لا، تشكرت من الشيخ على سعة صدره، وإجابة سؤالي بشكل لا يمكن الشك فيه.

نهض الشيخ وربت على كتفي وقال: إسأل ولا تتحرج من أي سؤال، حتى تصبح صلباً بالقناعة، وإلا أي فكرة جديدة أو خدعة ستهزك.

ثم افترقنا كلاً ذهب إلى وجهته.

لقائي بالشيخ زادني معرفة وبين لي ما كنت أجهله.

استلقيت على فراشي الذي هو آخر محطات اليوم، كان الجو ربيعيا وشباك غرفتي مفتوح، والهواء يدغدغ كل أرجاء الغرفة، فنسمات الهواء الباردة، كأنها مكافأة يوم بذلت فيه جهداً كبيرا.

عند الفجر؛ صوت الآذان تناقلته نسائم الفجر "الله أكبر الله أكبر" فهو بمثابة دعوة للقاء بالله سبحانه وتعالى، وبطاقة للتزود من الفيض الإلهي التي لا يردها أي عاقل مطلقاً.

قمت واسبغت وضوئي، وصليت صلاة الصبح، وقرأت بعدها زيارة عاشوراء، وكأني لأول مرة أقرأها، إني سلمٌ لمن سالم (محمداً وآل محمد) وحرب لمن حاربهم، لم تكتفي بالحب والبغض وإنما السلم والحرب، والسلم لا يشمل فقط أهل البيت (عليهم السلام) وإنما الدائرة أكبر بكثير تشمل من يسالمهم أيضاً، ويترتب على هذا من المواقف الكثير، وتوضح الصورة الأحداث بشكل كبير، هذا الموضوع يصنع من المؤمنين كتلة واحد، يربطهم الإيمان والحب معاً ليس بأهل البيت فقط وإنما بمحبيهم أيضاً.

إن تلك البوصلة اغنتني عن الف سؤال وسؤال، فهي ترشدني إلى من يمكن أن نمنحهم الحب، وتطمئن لهم النفس.

فالآن أعلن حبي وانتمائي للسيد حسن نصر الله ولمن يقف معه، وبغضي وعدائي لكل أعداء السيد ومؤيديهم والداعمين لهم.

روح القيادة

القائد هو جوهر وصفوة المجموعة، وعلمها الخفاق، وقدوتها التي تسير خلفه، فحينما اشاهد الكم الكبير من القادة والمدعين للقيادة، لا أعرف من هو روح وجوهر الجماعة، ومن نتعلم منه ونسلم له، ونركن له في الشدة والرخاء.

كثيرة هي الأسئلة التي تدور في رأسي، التي تبحث عمن يجيب عنها؟ دائماً ما استغل وقت العصر في ممارسة المشي دون وجهة محددة، في الأراضي الزراعية، التي تعد جنة غناء بهوائها اللطيف، ومنظرها الرائع قبل الغروب، حيث أشعة الشمس تودع حقول العنبر، فتخلط الألوان بين خضرة النباتات وحمرة الشمس، وسواد الليل الذي يلوح في الأفق.

منظر الطيور وهي تحلق في السماء على شكل قوس، وفي رأس القوس قائد المجموعة، الذي يرسم الطريق ويحدد الوجهة التي يسيرون إليها، منظر جميل ويحمل رسالة بمهمة القائد.

تبقى الأسئلة حول القائد كثيرة، كيف يصبح قائدا؟ وكل أدوات الاستفهام الأخرى تتبادر في ذهني، فهو أمر جداً مهم، لتعلقه في أمة ومصيرها من الكرامة والمستقبل والثقافة والحياة وحتى الدين.

لا بد من العودة لأستاذي الذي يفك شفرات أسئلتي، ويبسط الأمور حتى استوعبها، فأستاذي الشيخ عبد الله كباقي المشايخ، يتردد على النجف الأشرف لإكمال دراسته الحوزية، فدائماً ما يتواجد في الخميس والجمعة من كل أسبوع، ولم أحبذ زيارته للبيت حتى لا اخذ من حصة عائلته التي قد ابتعد عنها لخمسة أيام.

إن المسجد هو نقطة اللقاء بالشيخ عبد الله فهو سيأتي حتماً ليضمد جراح منطقتنا في خطبة الجمعة، التي تعد إكسير الموعظة لكل المشاكل، بأسلوبه المؤثر وتشخيصه للمشاكل التي يعالجها، فهو واعظ بارع، يستهدف المشكلة الأساسية فيعالجها، لتختفي المشاكل الجانبية بشكل طبيعي، وشجاع يسمي الأمور بمسمياتها، وأمثلته من الواقع، ليكشف كل الضباب عن أعين الناس.

مع اقتراب منتصف النهار من يوم الجمعة، اغتسلت غسل الجمعة وتعطرت وتصدقت بما هو متيسر، هذا ما هو مستحب في يوم الجمعة، الذي يعد حج الفقراء، وقصدت المسجد.

المسجد الذي يتوسط منطقتنا بمنارته الطويلة نسبياً، التي توزع الصوت بالتساوي على المنطقة، فصوت قراءة القرآن الكريم يجدد روح الحياة، خصوصاً وهي تبث سورة الجمعة التي تدعو إلى الانقطاع إلى الله تعالى.

ما إن دخلت إلى المسجد حتى بدأت عيناي تفتش عن الشيخ عبد الله في أرجاء المسجد، فوجدته يتكئ على أحد أعمدة المسجد، وتحيط به مجموعة من الشباب، سلمت عليهم بالإيماء كي لا أقطع حديثهم، انضممت إلى الحلقة بهدوء، وكان يتكلم عن دور الفرد داخل الأمة، فيقول الشيخ التزام الفرد ليس كافياً دون التفاعل مع أحداث الأمة، الشخص يجب إن لا يكون منعزلاً ومنطوياً على ذاته، الإسلام يريد أن يكون الفرد فاعلاً في المجتمع، فتجده يركز على صلاة الجمعة والجماعة والحج والجهاد، لأنه مطلوب أن يكون فاعلاً مع كل أحداث الأمة، لأنه جزء منها ولا بد ألا ينعزل مطلقاً، فقال عن أبي الزهراء محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) "من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم، ومن سمع رجلا ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم" فهذا الحديث يجعل المسلمين كتلة واحدة مترابطة ومتماسكة، ثم قال إن الله سبحانه وتعالى قد جعل كتاباً خاصاً لدور المرء مع قضايا الأمة، فقول الله تعالى (كلُّ أمَّةٍ تدْعى إلِى كِتابِهَا) يوحي بأن لكل أمة كتاباً يتعلق بأفرادها جميعاً، إضافة إلى صحيفة الأعمال

الخاصة بكل فرد، ولا يبدو هذا الأمر عجيباً إذا علمنا أن للإنسان نوعين من الأعمال: الأعمال الفردية والأعمال الجماعية، فهذا يحتم على المؤمن أن يؤدي دوره في الأمة، وأن يكون عنصراً فاعلاً فيها.

بدأ المؤذن يرفع الأذان وبدأ المصلون يفدون إلى المسجد، واختتم الشيخ الجلسة بالصلاة على محمد وآل محمد، ثم توجه إلى محراب الصلاة.

بعد الانتهاء من الصلاة توجهت للشيخ وسلمت عليه، فعانقني وقال إنه مشتاق لي، أعربت بشعور متبادل عن الاشتياق مع بعض الخجل، قلت للشيخ شيخنا العزيز ما هي مواصفات القائد؟ وما أنواع القادة؟ قال الشيخ بعد أن أمسك بيدي وخطونا بعض الخطوات البطيئة في المسجد: إن مواصفات القائد كثيرة، منها: مؤهلات شخصية؛ مثل الصدق والأمانة والشجاعة والصبر والإخلاص والتواضع، ومؤهلات فكرية؛ مثلاً لديه تحصيل علمي ولديه رؤية استراتيجية، ومؤهلات القيادية والإدارية؛ مثلاً القدرة على اتخاذ القرار، والتواصل الفعال، وإلهام وتحفيز الآخرين، وإدارة الأزمات، وبناء فريق عمل، ومؤهلات أخلاقية؛ مثلاً لديه التقوى ومخافة الله تعالى، والرحمة بالمؤمنين، والشدة على الكافرين.

هذه الصفات تمكن القائد من استيعاب الظروف المحيطة بأمته بشكل عام، من إمكانيات وقدرات إلى التهديدات والمخاطر، فهو يعرف مكامن القوة والخطر، ويستطيع أن يؤثر في الآخرين، حتى يبدأ بتحريك الأحداث وتغيير مجرياتها وفق مصلحة الأمة، فالقائد هو من يعرف الزمان والمكان اللازمين لأداء عمل ما.

أما القادة فمنهم قائد بالمنصب فهو لا يستطيع التأثير خارج صلاحيات منصبه، وقائد بالعلاقات ولديه شبكة علاقات تمكنه من تذليل الصعوبات، وهناك قائد ملهم؛ الذي يصنع قادة مثله ويعبر حدود الزمان والمكان.

لقد تفاجأت بهذا السيل من الصفات والمهام بدور القائد، فطلبت مثال عن القائد الذي يعبر حدود الزمان والمكان، فقال الشيخ عبد الله المثال الواضح هو السيد حسن نصر الله، وقال الدليل على ذلك هو تأثرك به، رغم بعدك عنه.

وصلنا إلى باب المسجد، وتشكرت من الشيخ على إجابته الكافية والوافية، وعلى اعطائنا جزء من وقته، فإجابة الشيخ أصبحت تعاد في ذهني بشكل متكرر، وصورة السيد حسن لا تغادر عيوني، فالسيد هو فعلاً قائد يعبر حدود الزمان والمكان، بشخصيته الفذة وشجاعته وقدراته في اتخاذ القرارات ورسم رؤية للمستقبل.

أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَٰحِدَةٌ

كنت أتطلع للحصول على كتاب يتناول حياة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) فحبي للرسول الأعظم يدفعني للإطلاع على حياته المباركة بشكل تفصيلي ومتسلسل، وبينما أنا أسير باحثاً عن هذا الكتاب، مررت بسوقٍ يمثل لقاء بين الحاضر والماضي، على جانب منه محلات ذات واجهات زجاجية جميلة، تبُاع فيها أجهزة الاتصالات، ومحلات للعطور، وتجهيزات الأطفال وصيدليات، كل الباعة كانوا صامتين لا ينادون للترويج عن بضاعتهم، وجانب أخر محلات قديمة تباع فيها الأسماك والفواكه والخضروات، وبسطيات غير نظامية متناثرة على طول السوق تكثر فيها الأصوات حتى تختلط لتصبح غير مفهومة، فقط ضجيجاً، كأنما هناك تبادل سلمي يتم بين الحاضر والماضي للسوق، وإذا بي أتفاجأ بالأستاذ سالم الذي لم التقه منذ مدة، سلمت عليه وتبادلنا الأسئلة عن الأحوال، ثم سألته أن يرشدني لكتاب ينقل حياة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال الأستاذ سالم: هناك الكثير من الكتب لكنها أما كبيرة أو تخصصية، ثم قال: عليك بكتاب السيرة المحمدية للشيخ جعفر سبحاني دام ظله، فهو كتاب ذو أسلوب جميل ،ومختصر نسبياً وشامل لأهم الأحداث، تشكرت من الأستاذ ودعوته ليكون عندنا ضيفاً إلا أنه اعتذر، ووعدني أن يزورنا في المرة القادمة.

سعيت للحصول على الكتاب بسرعة، وبدأت أقراؤه بشكل مستمر حتى اكملته في ثلاثة أيام، لقد بين الكتاب حياة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) ووضح الجهود الكبيرة التي بذلها الرسول الأعظم بأبي وأمي، لأجل صناعة هذه الأمة، التي قال عنها الله تعالى (إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون) الله تعالى ورسوله يريدانا أمة واحدة، لا أمة متفككة ومنقسمة.

الأسئلة لم تتوقف في ذهني، كأنها إعصار من علامات الاستفهام أصبحت تدور في رأسي، لماذا نحن هكذا مقسمين؟ ولماذا نحن هكذا ضعفاء ينهش بنا كل ذي مخلب؟ بقيت الصور تتولد في مخيلتي، كم سيكون الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) حزيناً عندما يشاهد أمته بهذا الحال!

لقد حزنت على رسول الله وعلى جهوده في تبليغ الرسالة الإسلامية، ماذا سيكون واجبنا الشرعي حيال أمتنا الإسلامية؟ قلت في نفسي هذه الأسئلة لا بد أن أراجع لأجلها الأستاذ سالم، فهو ملم بالموضوع لأن اختصاصه تاريخ إسلامي، وذو نشاط سياسي.

الأستاذ سالم لديه منتدى الفجر الثقافي، الذي يمارس أعمالاً ثقافية على أشكال مختلفة، منها عمل نشرات وملتقيات واحتفالات ومجالس عزاء، تبث روح الحياة في المدينة، ويعمل على كشف زيف الادعاءات الإنسانية للعالم الغربي، كذلك يوضح عظم قيمنا وثقافتنا الإسلامية، فالمنتدى له نشاط أسبوعي، وأفضل مكان التقي الأستاذ سالم هو مقر المنتدى، إن منتدى الفجر قد اتخذ من إحدى الحسينيات مقراً له، وحول هذه الحسينية إلى معلم يبث روح الثورة الحسينية في الشباب.

ذهبت في ليلة الجمعة إلى منتدى الفجر، الذي يبعد عنا بضع كيلو مترات، الطريق إلى المنتدى ريفي تتناثر على جانبيه بيوت متفاوتة المساحة، ليس هناك من شيء منظم، كل بيت له حكاية واضحة من خلال هيئته، بعضها سعيدة، إنارتها ساطعة وساحتها نظيفة ومرتبة، وبعضها على العكس تماماً، توحي بأن ساكنيها غير سعداء، كأنهم على موعد لمغادرة الحياة.

وصلت إلى منتدى الفجر، كان الأستاذ سالم عند الباب يستقبل القادمين، بحفاوة وترحاب حار، كل شيء منظم، شباب المنتدى سيماؤهم في وجوههم، شباب مؤمنون، يحبون التزود بالمعرفة، إضافة إلى أخذ دورهم في حركة الأمة، حتى لا يبقى مكانهم شاغراً، ويفتقدهم الإمام المهدي المنتظر (عجل الله فرجه الشريف) فهم أعز عند الإمام من الهدهد عند سليمان، فكيف لا يفتقدهم؟

كنت أنتظر فرصةَ تفرغِ الأستاذ سالم حتى أتمكن من طرح أسئلتي عليه، عيوني كانت تخبره بحاجتي للسؤال، واذا بالأستاذ سالم يومئ لي بيده لأجل أن أجلس إلى جنبه. فذهب وجلست إلى يمينه.

فقال الأستاذ سالم: كيف حالك، إن شاء الله تكون بخير.

فقلت: إن شاء الله بخير ولله الحمد، لكني جئتك وعندي عدة أسئلة.

فقال الأستاذ سالم: الأسئلة نعمة، فكل سؤال هو أداة من أدوات المعرفة، ومنظار لتشاهد الأشياء من مسافاتها بعيدة.

فقلت: أستاذي العزيز؛ لماذا أمتنا بهذا الحال من الضعف؟ وهل يقبل النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بوضعنا الحالي؟

فقال الأستاذ سالم: بكل تأكيد الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) غير راضٍ بحال هذه الأمة، وسبب ضعفنا هو الانقسام والتفكك، بالنتيجة أصبحنا لقمة سائغة للعدو، ينهش بنا متى ما أراد؟ وأين ما أراد؟

فقلت: وما الحل؟

فقال أستاذ سالم: الحل هو ما تحدده القيادة الإسلامية المتمثلة بالعلماء والمراجع العظام، الذين يعرفون الداء والدواء لهذه الأمة.

قلت: ماذا حددوا؟

فقال الأستاذ سالم: حددوا إن السبب الرئيسي لمشاكل الأمة هو تفككها، لذا فالحل هو الوحدة الإسلامية، وتضميد كل الجراح، لتكون أمة واحدة.

فقلت: ومن يقبل أن يتنازل؟ بعد خلاف استمر لألف سنة!

فقال الأستاذ سالم: الوحدة الإسلامية لا تعني إلغاء الآخر، والتنازل عن آرائه العقائدية والفقهية، وإنما الوحدة في المواقف العامة التي تخص المسلمين بشكل عام، والوقوف بوجه الأعداء وعلى رأسهم الكيان الصهيوني، والولايات المتحدة الأمريكية، ومن يقف معهم من الذين يريدون إبادة المسلمين، ونهب ثرواتنا والسيطرة على بلداننا، فأول خطواتهم هي إثارة النزاعات الطائفية بين الفرق الإسلامية، ودعمها بشتى الطرق، وبتفرقنا نحن نعينهم على تحقيق غايتهم.

فقلت للأستاذ: وهل يمكننا أن نتحد؟

فقال الأستاذ سالم: نعم ممكن، عندما نشاهد العدو بأعلى الإمكانيات المالية والسياسية والإعلامية، مع حساسيته الشديدة لخطر الإسلام، بعد أن تحول من نصوص وأفكار إلى نظام خاص به، فلا بد من أن يهاجم المسلمين، ويخلق الأزمات، فأول خطوات مواجهة العدو هي الوحدة الإسلامية.

فقلت: وهل هناك خطوات عملية للوحدة الإسلامية؟

فقال الأستاذ سالم: نعم بكل تأكيد، بل أتت بأكلها، مثلاً مؤتمرات الوحدة الإسلامية التي يرعاها السيد علي الخامنئي دام ظله، ونهج السيد علي السيستاني الذي كلمته الشهيرة "لا تقولوا إخوتنا السنة بل قولوا أنفسنا" وخير مثال للوحدة الإسلامية ما يقوم به السيد حسن نصر الله، فهو رائد الوحدة الإسلامية، وقد حول لبنان من جبهة ممزقة وضعيفة، إلى صخرة تتحطم عليها محاولات العدو في قضم الأراضي اللبنانية، بفضل ما سعى له من الوحدة الإسلامية.

فقلت للأستاذ سالم: هناك من يتهجم على الفرق الإسلامية الأخرى، مع سرب من الأسئلة والبراهين، فما هو رأيك فيه؟

فقال الأستاذ سالم: هناك كلمة جميلة للسيد روح الله الخميني (قدس الله سره) "بينما يتناقش الشيعة والسنة في مسألة وضع اليدين على الصدر او انزالهما أثناء الصلاة، فإن أعداء الإسلام يفكرون في قطعهما"

هذا جواب كافٍ وشافٍ، أعتقد أن إجابات الأستاذ سالم كانت جداً مهمة بالنسبة لي، وقد فتحت لي أبواباً كثيرة .

تشكرت من الأستاذ كثيراً لإجابته أسئلتي وتوضيح ما كان مبهماً لدي، وقبل أن أودعه للمغادرة؛ مد يده في جيبه، وقدم لي مسبحة من التربة الحسينية، ودعته بحرارة على أمل أن التقي به في مناسبة قريبة.

لقد استفدت كثيراً من الأستاذ سالم، لكن أكثر ما أثار إعجابي هو السيد حسن نصر الله، فقد كان رائداً للوحدة الإسلامية هذه المرة، كم كبير أنت يا سيدي؟ وما أعظمك من نعمة؟ مّنَ الله بك علينا يا سيدي أبا هادي.

مع تقدم غوصي في بحر سيدي حسن، أكتشفت عمق كلام الشيخ مصباح اليزدي عندما قال "أتقرب إلى الله بحب سيد حسن" فعلاً، إن من يكون بهذا الحجم من العطاء، فحبه حقاً يقربنا إلى الله تعالى.

فلك الإنتظار

الإمام المهدي المنتظر (عليه السلام) هو الركن الشديد، الذي تهرع إليه الأمة عند آلامها ومصائبها، به نتوسل إلى الله تعالى لتحقيق حوائجنا، وعليه تُعرض أعمالنا فهو الإمام ونحن

رعيته، فنتصدق عنه، ونقرأ سورة الشمس المباركة لسلامته، وترفع الأيادي للدعاء له بالفرج لأنه غائب، أو بالأحرى نحن محرومون منه.

مع تتبعي المستمر الممزوج بالشغف للسيد أبي هادي، أثار انتباهي أن السيد يخاطب الإمام (عجل الله فرجه الشريف) بشكل مباشر، كأنه ظاهر لا يغيبه عنه أي حاجز، فالسيد يخاطب الإمام بصوته الجهور، وحماسه العلوي فيقول: نتوجه إلى مولانا صاحب العصر والزمان (عليه السلام) نقول له يا سيدنا ومولانا وإمامنا، عندما ندعوك للظهور والقيام والثورة، ندعوك ونعدك وعد الصادقين الأوفياء، سنفديك يا سيدنا بأرواحنا ودمائنا وفلذات أكبادنا وأموالنا، وكل ما خولنا ربك، يا سيدنا أياً تكن المخاطر نكن معك، أمضِ بنا حيث شئت وأنى شئت، فوالله لن نقول لك صيف حار ولا شتاء بارد، كما قيل لجدك أمير المؤمنين (عليه السلام) لن ترى منا يا إمامنا تعباً ولا ملاً ولا ترددا، بل لو أمرتنا أن نزيل الجبال لأزلناها، سنكون معك سنقول لك كما قال أصحاب الحسين للحسين (عليه السلام) ليلة العاشر، عندما أذنَ لهم بالذهاب والمغادرة فوقفوا جميعاً وقالوا بصوتٍ عالٍ، بصوت مرتفع، أنبقى بعدك؟! سنكون معك بهذه الروح صغارنا، كبارنا، رجالنا ونساؤنا، سنقول لك لا طيب الله العيش بعدك يا مهدي، يا بقية الله يا صاحب الزمان، يا حفيد رسول الله يا بقية الحسن والحسين (عليهما السلام) لو أننا يا سيدنا يا صاحب الزمان في معاركك ودفاعك عن المظلومين والمعذبين والمستضعفين، لو أننا نكون في كل تلك الحروب التي ستكون فيها معك، لو أننا نعلم أننا نقُتل ثم نُحرق ثم ننُشر في الهواء ثم نحيا ثم نُقتل ثم نُحرق ثم نُنشر في الهواء يفعل بنا ذلك الف مرة أو مائة ألف مرة ما تركناك يا مهدي.

كلمات وصوت السيد تأخذ القلب إلى الإمام المهدي (عليه السلام) كأنه ظاهر لا فاصل بيننا وبينه سوى أداء التكليف، فخطاب السيد خطاب الجندي المستعد بين يدي إمامه .

لقد ذُهلت عندما سمعت هذا الخطاب، أنني بين يدي الإمام، كيف أكون جندياً وأنا لم استعد حتى للقاء به أصلاً.

بدأت بالتفكير كثيراً بالإمام المهدي (عجل الله فرجه الشريف) وعن علاقتي به، لقد طأطأت رأسي خَجلاً منه، فأنا مُقصر جداً، أو أنا جندي جريح لا يقوى على أي نزال.

أنظرُ إلى أين وصل السيد حسن ورفاقه قرباً من الإمام المنتظر! وأين أصبحت أنا!

أنا في نهاية الركب، أو قد لا أكون في الركب أصلاً، بقيت الأسئلة تنزل عليَّ كأني بُحيرة في وسط الصحراء، وكل الطيور المهاجرة تحط رحالها عندي.

معلوماتي هزيلة لا تقوى على الصمود أمام كل هذا الكم الكبير من الأسئلة، فوددت أن أطير بجناحين لأذهب إلى سيدي أبي هادي، ليروي ظمأ روحي، بيقينه وتسليمه للإمام بأبي وأمي، لكن من أين لي الإمكانية أن التقي به.

فما كان لي إلا أن أذهب إلى الشيخ عبد الله، هارباً من الأسئلة التي قد أحاطت بي.

كان يوم الجمعة مشمساً، مع بعض قطع الغيوم البيضاء المتناثرة في السماء الزرقاء، كأنها جبال من القطن، سرت إلى المسجد لإقامة صلاة الجمعة، مع كل خطوة أصلي على محمد وآل محمد،

ينشرح صدري عندما أعلم بأن تلك الصلوات ستصل إلى الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) وستُعرض على الإمام المهدي (عليه السلام) وصلت إلى المسجد قبل الصلاة بمدة، وإذا بالشيخ عبد الله يقف أمام مكتبة المسجد المتواضعة، سلمت عليه وصافحته بشوق كبير، فمسك يدي وذهبنا نتجول في أروقة المسجد، ويسألني عن أحوالي وعن ماذا قرأت في هذه الفترة.

فقلت له: شيخنا جئتك برزمة من الأسئلة عن الإمام المنتظر (عجل الله فرجه الشريف) وأحتاج إلى وقت منك لأجل الإجابة على هذه الأسئلة.

تبسم الشيخ وقال: رزمة من الأسئلة، هذه ستكلفك الكثير مع ابتسامة هادئة.

فقلت له: بخدمتك شيخنا.

قال: إن شاء الله أنا بخدمتكم.

فقلت له: سمعت خطاب السيد حسن هذ الأسبوع، وهو يخاطب الإمام المهدي المنتظر خطاباً مباشراً كأن الإمام أمامه، ويدعوه للثورة...، كيف يتكلم السيد حسن هكذا مع إمام غائب؟

فقال الشيخ عبد الله: السيد حسن إنسان منتظر للإمام انتظاراً إيجابياً، ووصل إلى مرحلة أن الغَيبة والظهور عنده سواء.

فقلت للشيخ: وما هو الانتظار الإيجابي؟

فقال الشيخ: الإنتظار الإيجابي هو الاستعداد والتهيؤ للظهور المبارك، ماذا يحتاج كي أعمل لتوفيره؟ يحتاج إلى الإخلاص لله تعالى، الثبات على الولاية، الوعي والبصيرة، بناء النفس حسب ما يريد الإمام، رفع معاناة الناس، والوقوف بوجه الظلم وصفع الظالم، بناء قوة واقتدار في كل المجالات، وتسخير كل الطاقات لأجل بناء دولة العدل الإلهي، وليس الاكتفاء بالانتظار دون عمل، فهذا انتظار الكسالى، وعديمي الإرادة.

فقلت للشيخ: ومن يقول نحن في زمن الظهور أصلاً؟

فقال الشيخ: الإمام المهدي مُنتظِر وليس مُنتظَر، وعليه هو من ينتظرنا وليس نحن، فركائز دولة العدل الإلهي هي ثلاث، مشروع إلهي وإمام وقاعدة، فبكل تأكيد مشروع الله تعالى هو موجود ومكتمل منذ آدم عليه السلام، أما الإمام فقطعاً هو مستعد وإلا كيف يكون إماماً، فبقيت القاعدة هي من فيها المشكلة، تعاني من عدم الاستعداد والتهيؤ للقيام بدورها.

فقلت للشيخ: لماذا لا يطوي الإمام الأسباب ويُخرجنا مما نحن فيه بظهوره؟

قال الشيخ: لا تنسَ أن الظهور ليس حلاً، فقد كان قبل الإمام المهدي أحد عشر إمام، وعلى رأسهم الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) لكن ما الذي حصل غير إيذائهم وقتلهم

وسجنهم على أيدي شرار الناس، الحل يا عزيزي هو معرفة الإمام والالتزام بتوجيهاته، وصناعة قاعدة تنصره، وتدافع عنه وعن مشروعه.

فقلت للشيخ: يعني متى ما اكتملت القاعدة يظهر الإمام، أم هناك موعد عند الله تعالى ثابت؟

فقال الشيخ عبد الله: نعم بكل تأكيد، متى ما تهيأت الظروف يخرج الإمام.

فقلت للشيخ: وما هي الظروف؟

فقال الشيخ عبد الله: الظروف كثيرة لكن أهمها الاستعداد لتحمل أعباء دولة العدل الإلهي، الاستعداد للنهوض بكل القطاعات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فضلاً عن العسكرية، بشكل مختصر أن تكون ذا اقتدار لتدافع عن مشروع الله تعالى وعن حجته في أرضه.

فقلت للشيخ: هذا مشروع إلهي كبير بل هو خلاصة الدنيا، كيف لي أن آخذ دوراً فيه؟

فقال الشيخ: كل شخص يعمل بتكليفه، اعمل بحسب ما تستطيع، ابدأ بإصلاح نفسك بالشكل الذي يؤهلك أن تكون مع الإمام، ثم اعمل على إصلاح عائلتك حتى تصل إلى المجتمع، نحن الآن نعيش بإرهاصات ما قبل الظهور، يمكنك أن تكون قائداً بين يدي الإمام وليس جندياً فقط.

فقلت للشيخ: وهل يمكنني أن أكون قائداً؟

فقال الشيخ: نعم يمكنك أو على الأقل احجز لك مقعداً بالقرب منهم.

بينما نحن في قمة الحوار، رُفع الأذان لصلاة الجمعة، لينهي الحديث الذي أخذنا لعالم الانتظار، لكنني لم ارتوِ بعد.

توجهنا أنا والشيخ إلى الصلاة، فإذا بالمؤمنين قد ملأوا المسجد، فبدأ الشيخ عبد الله بخطبة الجمعة، وكعادته يبلسم الجراح، ويضع الحلول، فما أمهره في ذلك.

عدت إلى البيت، وفي طريق العودة أفكر في الانتظار الإيجابي، والمشروع الإلهي والإمام والقاعدة المناصرة، والإمام هو بأبي وأمي من ينتظرنا، كثرت الأسئلة عندي، وبدأت أغرق في بحر الأسئلة عن الإمام المهدي (عليه السلام) لكن ما أن أفكر بأن الإمام أمامنا، أشعر بالأمل الكبير، فشمسه تمنحنا الحياة، ويده المباركة تلوح بالنصر الحتمي، الذي هو وعد إلهي، فالأمل هو شريان الحياة، ولو تسرب اليأس إلى القلب سيسلبه الحياة، ليكون فاقد الحركة والتأثير.

أصبحت أيامي تبدأ بالإمام، ليمنحها البركة، بدأت أسعى للقرب من الإمام (عليه السلام) أصلي في أول الوقت حتى ترفع صلاتي مع صلاة الإمام، فقد شعرت بوجوده، ويد عطفه تسهل لنا الكثير من الصعوبات.

أشعر بالظمأ فأسئلتي لم تنتهي بعد، وكلما أسمع خطاب السيد حسن واسمع كيف يذكر الإمام، وكيف يدعو له بالفرج، تكثر أسئلتي عن الإمام وعن سر هذا التعلق بالإمام من قِبل السيد، وقد جمعني لقاء بالأستاذ سالم بدعوة غداء لأحد الأصدقاء، بمناسبة عقد قرانه، فانتهزت فرصة وجوده فسألته: لماذا الإمام المهدي لا يعتمد على المعجزة في ظهوره المبارك؟

فقال الأستاذ سالم: إذا استخدم المعجزة فما هو وجه الحكمة من كل هذه الغيبة؟

لكان استخدمها من أول يوم لإمامته، أو لكان الأحرى بالرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) استخدام المعجزة، وينهي هذا الصراع بين الخير والشر، إضافة إلى أن الإمام يريد أن يبني مجتمعاً إيمانياً واعياً يتحمل مسؤولية العدالة، وليس مجتمعاً مبهوراً بالمعجزة، فالمعجزة ُستتخدم عند الضرورة القصوى، وليس بشكل دائم في إدارة حركة الحياة، وعلاوة على ذلك سوف تُلغى سنة الله، في الاختبار والتمحيص اللذين جريا على الأمم السابقة،

سبحانه وتعالى لا يغير سننه فهي تجري على الجميع.

لقد أبهرني الأستاذ بهذه الإجابة الرائعة، وأزال عني غموضاً كثيراً ما عانيت منه.

فسألته هل للظهور من علامات تدل عليه؟

فقال الأستاذ: نعم بكل تأكيد، الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة (عليهم السلام)

قد رسموا خارطة طريق مملوءة بالعلامات التي توصل السائر إلى الإمام المنتظر (عجل الله فرجه الشريف) فقد بينوا الاماكن والأشخاص والشهور وحتى الأيام، لكن لم تحدد السنة، لتبقى الغيبة غير محددة النهاية، وكذلك انطلاق ثورة الإمام تبقى ضمن السرية كي لا تكشف للعدو، فهذه أسرار آل محمد (صلوات الله عليهم) فقلت للأستاذ وما هي علامات الظهور المبارك؟

فتبسم الأستاذ، وقال سؤالك يحتاج إلى إن اجمع كل الباحثين في الشأن المهدوي حتى يجيبوا على سؤالك!

ثم قال: علامات الظهور منها حتمية ومنها غير حتمية، فمن الحتمية الصيحة الجبرائيلية في ليلة ٢٣ من شهر رمضان، وظهور السفياني واليماني والخرساني، وقتل النفس الزكية في الحرم المكي، والخسف بالبيداء، هذه أبرز العلامات.

فقلت له: وهل هناك علامات أخرى؟

فقال: نعم؛ هناك نار أذربيجان، والنار المشرقية، وهرج الروم، وخسف حرستا، وسقوط الجانب الأيمن من مسجد دمشق، وهدم جانب من حائط مسجد الكوفة، وظهور عوف السلمي والشيصباني وصاحب البرقع، وفتنة الشام التي تنتهي بظهور السفياني، ومعركة قرقيسيا، ونزول الترك الجزيرة، وطلوع الشمس من المغرب، واختلاف بني فلان وقد يكون المراد بهم حكام الحجاز، وقتل النفس الزكية في ظهر الكوفة....

هناك الكثير من التفاصيل في علامات الظهور، فهي علامات دالة على قرب الظهور الشريف.

تشكرت من الأستاذ سالم، فقال هذا واجبي، وهل عندك سؤال أخر؟

فقلت: حالياً لا.

فقال أنا عندي سؤال، استغربت من أستاذ سالم وخفت من عدم قدرتي على الإجابة.

فقلت: بخدمتكم أستاذ.

فقال أستاذ سالم: مَنْ الأهم علامات الظهور أم طريق الظهور؟ فاطرقت، ثم أجبته بكل تأكيد الطريق أهم من علاماته.

فقال الأستاذ: أحسنت، مهمة العلامات هي الإرشاد، لتخبرك كم سرت في الطريق، وكم بقي عليك حتى تصل إلى الهدف.

فقلت للأستاذ: سؤال أخير.

فقال الأستاذ: تفضل.

فقلت: من أهم من ساروا في طريق الإنتظار؟

فقال الأستاذ: هم كثر لكن في وقتنا الحاضر السيد حسن نصر الله، لقد قطع شوطاً كبيراً في طريق الانتظار.

سيدي المفدى من جديد، هو القدوة في الانتظار، ومثال لمن يريد أن ينتظر، فصوره تدور أمام عيني بأشكال مختلفة، من عابد يتهجد في محرابه إلى رجل دين يعظ الناس ويواسيهم، إلى قائدٍ يهز سواتر الجهاد لتلد له النصر، إلى جبل أشم لا يهزه وعيد العدو، ولا يلين لحلاوة الدنيا وزخارفها. والله انه قد أخذ قلبي كله، وهو يستحق الأكثر لكن هذا كل ما عندي للأسف.

عقارب ساعة الأقصى تتحرك

دون سابق إنذار، ووسط السكون، بدأت عاصفة طوفان الأقصى، ليتفاجأ العالم كله، بهجوم الفصائل الفلسطينية على الكيان اللقيط في السابع من أكتوبر عام 2023 هجوم أعاد للأمة كرامتها، وأرجع روح الأمل والثقة في نفوس أبنائها، وبيّن وهن الصهاينة، وزيف إنسانية العالم الغربي.

كنت في ذلك اليوم في الحرم الحسيني، كان يوماً سعيداً مع ترقب للأحداث، والاسئلة لم تتوقف عن الهجوم، لقد كانت صفعة تاريخية للعدو الإسرائيلي، وإن شاء الله بداية النهاية.

سارت الأحداث بشكل سريع، فقد كان طوفان الأقصى خطاً فاصلاً بين الإسلام ومن يعتنقه من شعوب ودول ومنظمات وأحزاب من جهة، وبين الصهاينة ومن يدعمهم ويقف خلف إجرامهم من جهة أخرى، هكذا بدا المشهد، فلم تكن هنالك مساحة فاصلة بين الإثنين، ولم يكن هنالك جبل حتى، ليقف عليه المتخاذلون والمهزومون في هذه الحرب .

إذ أن الشعور بالمسؤولية والانتماء للإسلام، يحتم الوقوف مع الشعب الفلسطيني المظلوم، ومع واجب قلع الغدة السرطانية من جسد الأمة الإسلامية، فقد حط الرئيس الأمريكي والبريطاني والعديد من الرؤساء الأوروبيين، في يافا المحتلة لدعم الكيان الإسرائيلي، أي لدعم الظالم في قتل الأطفال والنساء والشيوخ، فأهل الباطل قد توحدوا على باطلهم، فما هو موقف أهل الحق؟

عيوننا تتجه إلى سيد المقاومة، وماذا سيكون موقفه؟ أمام العالم فقد تكالب العدو على عضو- غزة هاشم-

من الأمة الإسلامية، ليقطعه، ثم ينتقل العدو لأعضاء أخرى.

السيد الجليل حسن نصر الله لا ينظر إلا لتكليفه الشرعي، ولا يعبأ بالجمع وجحافلهم، فقد بدأ بحرب الإسناد لفك الضغط عن عزة.

حرب بكل المستويات، فقد توقفت الهجرة إلى فلسطين المحتلة وبدأت الهجرة العكسية، وتوقف كل شيء في الكيان من موانئ ومطارات ومعامل، وقد هرب أصحاب رؤوس الأموال الجبناء، لقد أمطرت المقاومة الكيان بالصواريخ، ووصلوا إلى ما لم يتخيله الصهاينة في يوم ما أن يصلوا إليه، حتى عاد طرح زوال إسرائيل إلى الطاولة من جديد.

مع بداية كل صباح أسرع إلى هاتفي لأشاهد الأخبار، واتتبع تحليل الأخبار وتوقعات أين تتوقف نقطة نهاية التفاعل للحرب! فكل شيء ممكن، أنا لم أتوقف عن قراءة دعاء أهل الثغور والصدقة عن المجاهدين، وكنت اتكئ نفساً على السيد حسن نصر الله، ومؤمن بخطواته وخياراته.

إن العالم كل العالم اجتمع على هؤلاء الأبطال الذين يدافعون عن دينهم وأرضهم، وسخرت كل الإمكانيات العلمية والعسكرية لضربهم، كأنهم أصحاب الكهف ، أو لأنهم أناس يتطهرون.

حدثت عملية البيجر التي ضربت العمق اللبناني واحدثت ضحايا ليست بالقليلة، ثم بدأت عمليات الاغتيال لعدد من قادة حزب الله من كأبي طالب وفؤاد شكر، والشيخ نبيل قاووق، بهذه الأثناء قد هجّر حزب الله كل سكان الشمال الفلسطيني المحتل، ودمر المعامل التي تمثل ركائز الاقتصاد الإسرائيلي.

قلوبنا تتجه إلى لبنان ومع ألم كبير بما يحصل في غزة من إجرام، الدعاء والصدقة والتبرعات هي كل خياراتنا المتاحة.

لقد انضمت إلى الحرب المقاومة العراقية، وانصار الله الحوثيين في اليمن، لقد توسعت دائرة الحرب، مع زيادة الصمت المطبق لأمة المليار مسلم.

منبر مهدوي في الأربعين

حلَ شهر صفر في العراق وبدأت مسيرة الأربعين، الجميع يتجه إلى كربلاء، فقد كان شعار الزيارة لتلك السنة "كربلاء طريق الأقصى" أحداث طوفان الأقصى وزيارة الأربعين على نفس الخط، فلا يمكن الفصل بينهما، فكلاهما يقفان أمام ظالم جائر، إن مشهد الزيارة لا يمكن أن نصدّقه لولا إننا عشناه، ويتكرر كل عام وينقل للعالم بكل اللغات، مشاهد عجيبة، الجميع أغنياء وفقراء، وكبار وصغار، ورجال ونساء، يتجهون للإمام الحسين (عليه السلام) مشياً على الأقدام، والزائرون من مختلف دول العالم، إن كربلاء محور العالم، وكل الطرق تصل إليها.

مسيرة كأنها فعالية مهدوية كبيرة، تهدف إلى تعارف بين الشعوب الإسلامية، وتقرب المسافات فيما بينهم، كذلك تُعدّ سوقاً ثقافياً يعرض فيه كل ما هو مرتبط بالثقافة الإسلامية، كأنها تهيئ لعصر الظهور، لترسم ملامح صلاة الجمعة في زمن الإمام بأبي وأمي، فالخدمات التي تقدم لا تقتصر على الأكل والشرب، وتقديم سبل الراحة المجانية التي تُأطر بأجمل الكلمات، وأفضل عبارات الترحيب، التي عُجنت بالحب والإخوة الخالصة، ولم ينتهي البذل على خدمات الراحة

بل حتى على الخدمات العلمية، فهناك مواكب للقرآن الكريم، ومعارض لصور الشهداء، ومحطات للأسئلة الفقهية على طول الطريق، من أبعد نقطة حتى الحرم الحسيني، وهنالك أيضا محطات مهدوية على طريق (كربلاء–النجف) هناك محطة، أخذت على عاتقها نشر الثقافة المهدوية، بها شباب وشيوخ وحتى نساء، فمنهم باحث وخطيب وعاشق وخادم، يجمعهم حب الإمام المنتظر (عليه السلام) ينزل الزائرون إلى المحطة، ليستقبلهم أحد المحاضرين، ويسألهم عن ما يعرفونه عن الإمام المنتظر، ثم يحدّثهم عن الإمام وعن أسباب غيبته، وواجبنا تجاه الإمام وعن دورنا في التمهيد له (عليه السلام) ثم يقول لهم المحاضر: وأنتم تتوجهون قاصدين الإمام الحسين (عليه السلام) تذكّروا أن حسين زماننا ينتظرنا أن نلتحق بركبه، فهو يحتاجنا جميعاً، وهذا الحديث يُطرَّز بأحاديث أهل البيت (عليهم السلام) مع آيات قرآنية.

التحقت بهذه المحطة، فأجواء الزيارة هناك تنقلك إلى عالم آخر، عالم الودِّ والحب الحسيني، إضافة إلى ذلك فالمحطة المهدوية تضيف روحية خاصة بها، فذكر صاحب الزمان له أثر خاص.

المحطة المهدوية يتوافد عليها كثير من العلماء والباحثين، وفي إحدى ليالي الخدمة زارها الأستاذ محمد، أحد الباحثين في القرآن الكريم، الذي كنت أتابع محاضراته، واعشق أسلوبه الجميل الذي يُعدّ سهلا ممتنعا.

كنت أنظر إليه من بعيد، عيوني تريد أن تعانقه أولاً، بدأ يُسلِّم على الحاضرين حتى وصل إليّ فسلمت عليه بحرارة، وعرّفت عن نفسي بأني أحد متابعيه، ما أن جلس حتى دعاني لأجلس إلى جنبه، شعرت أنني أمام أحد أساتذتي، فكم من الفخر أن أجلس مع الأستاذ محمد، طلبت منه أن آخذ صورة تذكارية، لأن اللقاء قد لا يتكرر.

بدأ يسألني الأستاذ محمد من أين أنا؟ وماذا عندي من نشاط؟ وهل في مدينتنا مؤسسة قرآنية؟ صحيح إني لم أكن مهتماً بالشأن القرآني، لكنّي لم أسمع عن مؤسسة قرآنية في مدينتي.

تبادلنا أرقام هواتفنا، واتفقنا أن يزورنا لكي يفتح مؤسسة قرآنية في مدينتنا، لكن بشرط ألا تكون هناك مؤسسة فيها، مع موافقة وكيل المرجعية في المدينة.

عُدت إلى أهلي بعد انتهاء الزيارة، أحمل خبر لقائي مع الأستاذ محمد، أخبر به أصدقائي، واتصلت بوكيل المرجعية وأخبرته عن رغبة الأستاذ محمد بزيارة المدينة لافتتاح مؤسسة قرآنية، رحب وكيل المرجعية كثيراً بقدوم الأستاذ محمد.

اتصلت به كثيراً من أجل أن يزورنا، وقد تم تحديد يوم الزيارة، عشت يوماً سعيداً جداً، فقد دعوت أساتذة وقُرّاء وكل المهتمين بالشأن القرآني، والحمد لله تكللت الزيارة بنجاح فقد تم الاتفاق بين وكيل المرجعية والأستاذ محمد، على فتح مؤسسة قرآنية تدرّس أحكام التلاوة والحفظ والتفسير والمقامات، إضافة إلى الفقه والعقائد.

لكن هناك قلق وخوف من فشل المؤسسة بسب قلة الطلبة، كنت اعتقد انها ستغلق أبوابها سريعاً، لأن مدينتنا قد أُغلقت فيها مدارس سابقاً لذات السبب.

شمس العاشر تشرق في غير موعدها

تلقّى الكيان اللقيط دعماً منقطع النظير من الغرب وأمريكا والدول المطبعة، لقد أصبحت المقاومة أمام العالم بكل طيرانه وأساطيله وتقنياته، وأصبحت نسبة عدم التكافؤ كبيرة جداً بينهما.

كان هدف جبهات الإسناد هو إيقاف آلة الإجرام الإسرائيلي على غزة، من قتل وتجريف للبيوت والمدارس والمستشفيات، حتى مارسوا كلّ أشكال الإجرام.

بهذه الأثناء تم قصف القنصلية الإيرانية في دمشق من قبل إسرائيل، مما أعطى الحق القانوني للحكومة الإيرانية، برئاسة السيد إبراهيم رئيسي بالردّ على الاعتداء، وفعلاً حدث رد قّوي سُميت العملية بالوعد الصادق، لقد زلزلت إسرائيل، وكانت سعادة ذلك اليوم لا توصف.

بتنا نترقب الأحداث عن كثب، حيث بدأ الكيان الصهيوني بهجوم قوي على جنوب لبنان، كان شعارنا "والله لن نتخذ الليل جملا " المرجعية الدينية العليا في النجف الأشرف دعت إلى دعم لبنان، لأنها تضررت بشكل كبير من الحرب، قلوبنا مع السيد الجليل حسن نصر الله والحزب مع كل عملية تستهدف الجنوب أو الضاحية أو البقاع؛ كنّا نشاهد استبسالاً منقطع النظير، وصلابة لا توصف من قبل أبطال حزب الله، ولم يسلّموا ولا شبراً من أرضهم للكيان.

عندما استشهد السيد محسن (فؤاد شكر) طلّ علينا السيد حسن بخطاب، كانت عيوننا لا تشبع من النظر لوجهه المبارك، لكن كلمات السيد في ذلك الخطاب كانت تختلف كثير اً فقد أنهى خطابه قائلا "لن نقول وداعاً ولكن نقول إلى اللقاء، إلى اللقاء مع انتصار الدم على السيف، إلى اللقاء في الشهادة، إلى اللقاء في جوار الأحبة" (كأنه يريد أن يقول هذا آخر خطاب لي، بقيَة المهمة عليكم فأكملوا المسيرة)

الدعاء والصلاة والصدقة مستمرة عن الأبطال الأشاوس الذي يقفون في الميدان، كثيراً ما ردّدت الدعاء الذي كثيراً ما دعا به السيد "اللهم يا من إذا تضايقت الأمور فتح لها باباً لم تذهب إليه الأوهام، صل على محمد وآل محمد..." اتصالاتي مع الأستاذ محمد لم تنتهي، حتى تم تحديد السبت ٢٠٢٤/٩/٢٨ موعداً لافتتاح المدرسة القرآنية، كنت أسعى جاهداً أن يكون الافتتاح جيداً، فقد دعوت كل الذين أعرفهم من مشايخ ومؤمنين، إضافة إلى دعوة عامة للمدرسة.

الضربات الجوية تشتد على لبنان، مع قصف مستمر على إسرائيل من قبل حزب الله، كأننا نصل إلى قلب المعركة، يوم الجمعة ٢٠٢٤/٩/٢٧ حصلت ضربة جوية قوية على الضاحية، وقد تناقلت وسائل الإعلام عن انقطاع الاتصال بالسيد حسن نصر الله! خفق قلبي كثيراً ذلك اليوم، كنا جميعاً ندرك حجم الضغط الهائل على حزب الله، لا نريد أن نضغط عليهم أكثر أو نخدم الإسرائيليين من حيث لا نعلم، فكل سؤالنا عن السيد، هل هو بخير؟ هل نجا من هذه الضربة؟ هل السيد جريح؟ ولكن ننتظر الخبر من الحزب، فلا يمكن أن نصدق بالعدو.

رفعت يدي إلى الله تعالى أن يرُجع السيد لنا سالماً، وإن يأخذ من سنوات عمري، ليعطيها إلى أبي هادي.

أصبحتُ وأخبار تؤكد وأخرى تنفي، وقلبي وقلوب الملايين قلقة على السيد، البعض يترقب، والآخر يؤكد من مصادر خاصة أن السيد بخير، لكن الدقائق أصبحت تسير ببطء، فبين سؤال وسؤال عن السيد لا تفصله بضع دقائق، بقيتُ إلى الواحدة بعد منتصف الليل انتظر خبراً عن السيد، لكن لا جديد، اتصلت بصديقي حسين الذي قال إنه لن ينام حتى يعرف خبراً عن السيد.

أشرقت الشمس لكن ملامح ذلك النهار كانت كئيبة، كأنها أشرقت بخبر حزين، أكملتُ كل متطلبات الافتتاح، وانتظر وصول الأستاذ محمد، لم أفارق هاتفي أبداً، أترقب الأحداث، وانتظر خبراً أكيداً عن سيدي ومولاي أبي هادي.

بعد الساعة الواحدة ظهراً نشر حزب الله بياناً ينعى فيه السيد! بياناً يعلن رحيل السيد شهيداً على طريق القدس، على نهج أجداده الأطهار، شهيداً أبياً في سبيل دينه، ودفاعاً عن المظلومين.

فأسرعت لأخبر الأستاذ محمد والمجتمعين معه لأجل الافتتاح، بأن السيد قد استشهد، لقد بكينا، نزلت الدموع وعلا النحيب، كيف لا نبكي وقد رحل السيد؟ تحيرت ماذا أصنع!

عالمي الكبير، ومنبع أسئلتي، وقدوتي قد رحل، سنبقى بلا حسن، أحسست أن جبلاً كنا نتكئ عليه قد زال.

نصف ساعة تفصلنا عن موعد افتتاح المدرسة، نظرنا للأستاذ محمد وقلنا له، هل نؤجل الافتتاح؟

قال الأستاذ محمد: لا، الخير في ما وقع، نفتتح المدرسة.

ذهبنا للمدرسة وعيوننا يكسوها الدمع، حضر عدد من المؤمنين، والشيخ عباس ممثلاً عن وكيل المرجعية في إلقاء الكلمة.

بدأ حفل الافتتاح الحزين، فكل الحاضرين وجوههم حزينة، وبعد تلاوة آيٍ من الذكر الحكيم، كانت الكلمة للأستاذ محمد، فقال: كنا نتمنى أن يكون يوم افتتاح المؤسسة يوماً سعيداً، لكن للأسف كان حزيناً بشهادة السيد حسن نصر الله.

بعدها كانت الكلمة للشيخ عباس، وبعد كلمته في أهمية طلب العلم؛ طلب أحد المؤمنين أن ينعى السيد بصوته الشجي، فقرأ الشيخ أبيات رثاء ولم يبَقَ أحد إلا وبكى.

كان أول مجلس عزاء في العالم يُقام على روح الشهيد الأقدس، فلم يسبقنا أحد.

القيت كلمة بسيطة، إذ قدمت التعازي والمواساة إلى حضرة الإمام المهدي المنتظر (عجل الله فرجه الشريف) برحيل جنديٍ مخلصٍ من جنوده، فكانت أول تعزية على روح السيد.

أقمنا مجلس عزاء لثلاث ليالٍ في ديوان جدي، مدينتي كلها أقامت التعازي فلم يبقَ مسجد وحسينية وموكب أو مدرسة، إلا وأقاموا عليه العزاء، كان يوماً عاشورائياً بامتياز.

ذهبت إلى مجلس الفاتحة الذي أقيم على روح السيد في منتدى الفجر، ما أن شاهدت الأستاذ سالم حتى عانقته وبكينا بشدة، بكينا بكاء الفاقدين، لقد ذهب سيدنا الذي كان سلوة كل أحاديثنا واسئلتنا.

فقال الأستاذ سالم: أنتم الجيل الجديد، لا تكتفوا بالبكاء على السيد، فأجبته وأنا أمسح دموعي، نعم سوف لن نكتفي بالبكاء، بكل تأكيد سوف نثأر.

مدرسة الثأر

لم أكن مطمئناً بنجاح مدرستنا القرآنية، لكن بيوم الافتتاح الذي تزامن مع شهادة السيد حسن نصر الله (رضوان الله تعالى عليه) وأول مجلس له عقد في مدرستنا، تيقنت تماماً بأن هذه المدرسة سيكتب لها النجاح ببركة دماء السيد.

أنا العاشق والمنتمي للسيد حسن فكراً ومنهجاً، أأبكي بكاء العاجزين؟ لا! والله لن أكتفي بالدموع، بل سأثار بجيل قرآني، وأن أجعل من هذه المدرسة منارة في المدينة، لبث الوعي والبصيرة، لتقف بكل شموخ وصلابة وإيمان أمام كل فتنة، وأعد جيلاً يحمل راية الإسلام عالياً.

ببركة دماء السيد الشهيد الأقدس حسن نصر الله، نجحت مدرستنا نجاحاً كبيراً، وأثمرت بوقت قصير، وخرّجت حفّاظاً وقرّاءً للقران الكريم، وأصبحنا نطوف المدينة بمحافل قرآنية، بمناسبات أهل البيت (عليهم السلام) وذكرى عروج الشهداء.

هل سيعود ؟

لا تكف عيوني عن البكاء، فجرح استشهاد السيد عميق جداً في قلبي، حتى أنني شعرت ببعض الآلام التي تعرض لها الأئمة (عليهم السلام) في فقد أصحابهم، أمثال مالك الاشتر ومحمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر، حتى قلت كيف للشيعة أن تحملوا فقد أئمتهم واحداً واحدا.

أقام مسجد الحي مجلس عزاء ليلة الجمعة، على روح سيد المقاومة، ارتديت السواد، وأخذت امشي بقلبي المكسور، فشاهدت قطع نعي السيد على البيوت والمحلات، فالناس المتفرقة في الأمس، قد توحدت بالحزن على السيد، وصلت إلى المسجد، كان الحضور غفيرا، والتقيت بالشيخ عبد الله، ما أن سلمت عليه حتى بكينا معاً، ثم أخذ يكلمني بأن السيد قد تعب كثيراً في طريق الجهاد، وقد آن الأوان أن يسترح من بعد كل هذا العناء، وأن لا يليق بالسيد إلا الشهادة.

قلت للشيخ أنا قلق من المستقبل، وأن الشهداء القادة هم العمود الفقري للأمة.

فقال الشيخ: بما أن للأمة إماماً يرعاها، فلا تقلق عليها، وهل تعتقد أن دماء الشهداء سوف تذهب بلا نصر؟

هؤلاء الشهداء لهم حظ كبير عند الإمام المهدي، فهم جنود أوفياء، وممكن أنهم سيعودون.

وقفت عندما سمعت سيعودون.

فأجلسني الشيخ وقال: هل تؤمن بالرجعة ؟ هناك من سيعود مع الإمام المنتظر (عجل الله فرجه الشريف) وبكل تأكيد سيعود من هو أكثر استعداداً واستحقاقاً لأن يعود، ليساهم مع الإمام في بناء دولة العدل الإلهي.

فقلت للشيخ وهل سيعود السيد من جديد؟

تبسم الشيخ وقال: لا يمكن الجزم ولكن وأن عاد سوف يكون في العيون المهدي المنتظر، يأسر القلوب عشقاً، ويمسح فوق الرؤوس ليمنحها عطاء من فيض بركاته.

القلوب لا بد وأن تمحص وتغربل، حتى تبقى فقط القلوب النقية...، فنقي قلبك وانتظر المهدي.